

الجزائر (العاصمة) و مشكل المياه في العهد العثماني

بقلم د/م. بلحميسي

تعيش عاصمة البلاد - منذ سنوات - أزمة حادة سببها قلة المياه الصالحة للشرب. وما أكثر العوامل التي تتراوح بين التبذير والجفاف وبين قلة الوسائل والانفجار السكاني. فهل في الأمر جديد؟ وهل طرح المشكل في الماضي بهذه الحدة؟ وكيف تصدى له المسؤولون آنذاك وكيف تكييفوا مع الوضع؟

لقد عرفت العاصمة - منذ القرن السادس عشر - احراجا في سد حاجياتها الحيوية لكنها اتخذت في كل مرة مبادرات ناجعة واجراءات عملية خففت الأزمة ان لم تقض عليها. ومن المفيد جدا متابعة الوضع آنذاك والوقوف عند الحلول وتقييم النتائج ولعل في الماضي ما يفيد الحاضر!

I

كان السكان - قبل أن تتحول مدينتهم الى مقره دولة حديثة ذات المؤسسات العديدة - يعتمدون على الآبار لتغطية حاجاتهم. فكان لكل دار بشرها. فهي اذن من المرافق الضرورية لاسيما وأن المضايقات كثيرة من حصادات وغارات تجبر الأهالي على المكوث داخل الأسوار، أسابيع أو شهورا. فلا يستغنى عن البئر من أراد ماء.

غير أن لهذه الآبار سلبيات جعلت القوم لايعولون عليها دائما. فالمياه الجوفية تزيد أو تنقص حسب الفصول أو السنوات فعام ممطر وأعوام بخيلة. ثم أن هذه المياه - في أماكن عديدة - غير صالحة للشرب فالماء الأجاج أو المالح أو المر لا يقيّد خارج الغسيل والتنظيف. ولذا استعان الأهالي مياه والأمطار فترقبوها وجمعوها وخزنها مثل ما تدخر المواد الغذائية الأساسية، إلا أن الغيث لا يعرف له وقت فالسما تجود وتشح وأن كان سيل فمابين شهر نوفمبر ومارس ومرارا تحول الأمل الى يأس.

والتفت الناس الى العيون الجارية خارج الأبراج واغتربوا من سائلها العذب. يقول أبو عبيد البكري متحدثا عن جزائر بني مزغنة: "ومرساها مأمون له عين عذبة يقصد اليه أهل السفن" (1) ويؤكد ذلك الشريف الإدريسي قائلا: "ومدينة الجزائر على ضفة البحر وشرب أهلها من عيون على البحر عذبة ومن آبار" (2) غير أن هذه العيون الموجودة خارج المدينة يصعب التردد إليها في كل وقت، فإن حدث ما يلزم السكان البقاء في منازلهم كالحرب أو الاضطرابات أو الأوبئة لتصدع التموين.

II

لقد تغير وجه المدينة كلياً منذ مطلع القرن السادس عشر. قدم الأتراك من الشرق واستقروا بها وأسسوا قاعدة لحكمهم وعاصمة للحكم. فتعددت المؤسسات والمصالح ورابط بها جيش برّي وآخر بحري ونزل بها أجانب ونازحون من الأندلس (3) وأسرى من أوروبا. فارتفع عدد المقيمين بها حتى أكتض المكان وصار "مملوءاً كالبيضة". فهذا الراهب الأسباني هايدو (Haëdo) يقدر السكان - في أواخر 16 بـ 60.000 وهذا زميله الفرنسي دان (Dan) - وقد وجد بالعاصمة سنة 1634 - يقول 100.000 نسمة يضاف اليهم 25000 أسير.

وكل من زار الجزائر العاصمة وقتئذ لاحظ كثافة السكان فهذا الفرنسي فانتور دي بارادي (Venture de Paradis) أو الضابط الجاسوس بوتان (Boutin) كلاهما يسجل في مذكراته هذه الظاهرة "رغم الأوبئة الفتاكة والحوادث المرعبة" ولا يستطيع هذا العدد الهائل من البشر العيش بدون مياه متوفرة دوماً.

وزد على هؤلاء القاطنين ما عرفت به الجزائر من نشاط في شتى الميادين يستهلك كميات ضخمة من الماء مثل الدباغة والصباغة والخبارة والبناء وصناعة الفخار. وجانب الاقتصادية حياة إجتماعية هي بحاجة الى ماء كثير فالمؤسسات الدينية والثقافية والعسكرية والمجموعات المحلية في تزايد: المساجد والزوايا والحمامات والشكنات والسجون والأسواق.

فلا يخلو حي من أحياء العاصمة من حمام أو أكثر "حيث يغتسل الأهالي في كل وقت كما جرت به العادة عند المسلمين" وقد ذكر الإنكليزي شاو (Shaw) "12 حماماً عادياً و 62 بخارياً" ويقول الإيطالي بانانتي (Pananti) أن الحمامات بالجزائر تستهدف اظهار الترف والمنفعة" (4) وقد لاحظ الزوار الغربيون نظافة المسلمين أجساداً وديناً.

وكانت للمساجد مرافق للطهارة وقد أحصى الأسباني هايدو 100 مسجد وذكر دي بارادي 109 و32 كتاباً ومن بين هذه المساجد الجامع الكبير والحمام الجديد (1660) وجامع كتشاوي (1794)

وجامع سيدي رمضان وجامع السيدة ويضاف الى المجموعة ثلاث جامعات "يدرس بها الفقه المالكي" ووجد كالفونسيون- سنة 1830- 13 جامعاً 100 مسجداً و32 كتاباً و12 زاوية وكانت زاوية الجامع الكبير بنهج باب الدزيرة تحتوي على " مدرسة للأطفال ومأوى للفقراء والفقراء". وزوايا أخرى تلعب نفس الدور مثل زاوية الأندلس وزاوية سيدي أحمد بن عبد الله .

وكانت القشلات السبع مسكناً للآلاف من الان السبع مسكناً للآلاف من الانكشارية ولكل بناية منابع ماء وكذلك السجون ومعتقلوها كادوا يبلغون ربع السكان.

III

لقد زادت الحاجة الى الماء ودفعت الى ايجاد حلول جذرية وفكر الناس في جلب السائل الثمن من الضواحي عن طريق القنوات والسواقي بعدما أمست الطرق التقليدية بالية وغير مجدية. وصادف مشكل الماء نزوح الأندلسيين المرغمين على الهجرة وفيهم خبراء في الري وفي اكتشاف المياه الجوفية وحملها للمدينة أو للفحص. وهكذا أسست شبكة من القنوات من مختلف الجهات تسقي العاصمة وحسب بعض المصادر فإن أوا² من حقق رغبة السكان هو عرب أحمد باشا (1569-1572) فأتى بالماء من بئر طارية لتزويد وسط البلدة إلا أن المردود لم يواز الطلب مما دفع المسؤولين الى البحث عن منابع أخرى.

وفي سنة 1611 أكتشف أحد الأندلسيين عيناً على ربوة، قرب سيدي يعقوب غير بعيد عن برج مولاي حسن (حصن الأمبراطور) فجئى بالماء الى بعض الأحياء وإلى جهات من البساتين المجاورة وذلك لغزارة التدقيق. ثم تواصل الاهتمام بتوفير الماء بزيادة الحاجة اليه فجاء دور قناة الحامة فوصل الماء الى باب عزون بعد مسافة 5 كم وتم ذلك الانجاز سنة 1662 على يد أسط موسى⁽⁵⁾. ويظهر أن القناة كانت في حاجة الى اصلاح المرة بعد الأخرى وقد قرر الداوي محمد بن عثمان (1766-1781) تجديدها. يقول في هذا الموضوع الشريف الزهار: "ومن خيراته أنه أتى بماء الحامة للبلاد وبنى له ساقية وأوقف عليه أوقافاً... وأمر بتفريقه على أبراج باب الجهاد وعلى المساجد والقشلات العسكرية والمضيات للوضوء وما تبقى فرقة على العيون بزقاق البلاد يملأ منه الناس للديار وهذا الماء كان يأتي من قبل للبلاد وإنما كان ضعيفاً"⁽⁶⁾. وكانت قناة عين الزبوجة المنطلقة من ابن عكنون والمارة بحيدرة فحي التجارين تصب بأعلى المدينة بعد قطع مسافة 8 كم. ويرجع الشريف الزهار فصل هذا الانجاز الى الداوي حسين (1818-1830) قائلاً:

"صنع طريقاً للماء عين الزبوجة واشترى مياهاً أخرى ضمها للماء الوارد على المدينة فكثرت الماء بها حتى أعلاها".

وكان إيصال الماء إلى العاصمة أسهل من توزيعه على الأحياء. فالعملية تتطلب إنشاء قنوات وسواقي عديدة حوالي 150 نقطة تسد حاجات السكان عن طريق الحنفيات أو الخزانات. أما الحنفيات فكانت تحفا فنية جلبت أنظار الغربيين بقيت قائمة إلى الاحتلال الفرنسي وانحاز معظمها من الأعمال الخيرية وكيف لا والدین یحث علی ما یخدم الصالح العام ولذا تسابق الحكام والمترفون وتنافسوا في بناء أجملها. يقول الأسباني هايدو إلى أحمد عرب باشا أمر بهدم حي كامل خارج باب عزون ثم أقام بنفس المكان حصنا بجانبه حنفية قدم الماء بلا انقطاع وكذلك بباب الوادي فإنه شيد حنفية أخرى تلقت مياه ينابيع عديدة كانت تنحدر من الكديات المجاورة للمدينة ومياهها عذبة وباردة ونقية⁽⁸⁾.

ومن مميزات هذه الحنفيات أنها عمومية لا يمكن لأحد أن يحتكرها أو يجلب ماءها إلى منزله بواسطة أنبوب فلسكان الحي نفس الحقوق، وأكبر ما يحصل عليه عظيم من الأعيان هو أن نشأ نقطة ماء بجوار داره لاغير.

وأظهر البنائون عناية ومهارة وذوقا رفيعا في أنجاز هذه المنابع حتى أصبح بعضها آية في الجمال فهي عادة في مشكاة حائطية يعلوها قوس وسط مربعات مطلية بالبريق أو مزينة بالفسيفساء ذات الألوان مما يجلب الأنظار ويشير الإعجاب وكتابات منقوشة في قطع رمر وآخر تخبر المارين بأسماء المؤسسين وتاريخ أعمالهم والدعاء لهم والكل مدعم بآيات قرآنية أو أحاديث نبوية أو قوم حكيم أو بيت شعر.

وتعتبر هذه الكتابات بمثابة الإجازة تطلع الناس على ورع المتبرع ومدى إحسانه ونكتفي بالمثال التالي: "يارب أجعل باني هذا المكان.

- محمد باشا - يحظى بالسعادة الأبدية وأسكنه جنتك بعيدا عن هول النار" أو تلك التي تعد بأن من أسأل هذا الماء بعون الله تعالى سيجني - مقابل كل قسوة مائه ألف حسنة".

ومن بين هذه المنابع تلك التي شيدت بالمرسى في عهد بابا علي سنة 1765 أو التي أقامها حسين داي سنة 1820 يقول عنها كلان أنها "أية حقيقية"⁽⁹⁾ وثالثة كانت بالشارع أما عين سيدي محمد الشريف بنهج النخلة سابقا فقد ذاعت شهرة مائها لدى النساء الراغبات في الحمل فكن يتعاجن به.⁽¹⁰⁾

ويضاف الى الزخرفة والتأنيق والأدعية حنفيات من نحاس وانا من خشب أو من معدن مربوط بسلسلة لكي لا يضيع وبه يروي الضمان عطشه.

ومن عجائب الأمور أنهم فكروا في الماء الضائع، وحتى لا يتسرب يمينا وشمالا محدثا الوحل والروائح الكريهة فانهم أحدثوا قنوات تحت الأرض وتقول بعض المصادر إن الأجهزة الجوفية ظهرت سنة 1634.

وعندما يتعذر بناء حنفية لاسيما في الأحياء النائية أو الوعرة فإن الناس يلجأون الى جرار ضخمة من طين -لاصقة بالحائط يملأها مستخدم مرارا في اليوم مقام الحنفية.

وكانت نقاط الماء مكان تجمع لا ينقع يعلو فيه الضجيج ويكثر الازدحام - خاصة في الصباح - لقد أعجب بالمشهد اليومي الأجانب فوصفوا الحركات والنظام والفئات الناقلة للماء من حضر وبدو وذكور واناث وأطفال وأسرى وعبيد كل في زيّه. وفيما كتبوه أجمعوا على أن لا مجال للتجاوزات فالأول بالأول ولا يتصور امتياز ولا فضل لحاكم على محكوم.

V

وبجانب هذه النقاط التي كان همها تغطية الحاجات المنزلية اليومية كانت وسائل أكبر حجما وهي الخزانات وشعر الناس بدورها الهام منذ البداية. فقد تعطب القنوات الخارجية - وكانت من طين فقط أو تخرب اذا اندلعت اضطرابات فيتوقف وصول الماء الى العاصمة وقد ينخفض المردود وقد يرتفع الطلب في الصيف وفي بعض المواسم كل هذا دفع الى اقامة خزانات لمواجهة ما قد يطرأ.

يقول الأسير داراندا (D'Aranda) وكان بالجزائر من 1640 الى 1642: " يقرب الحصن المعروف بحصن الأمبراطور تجري عين تزود المدينة ماء عذبا - والناس في حاجة اليه يصلهم بواسطة أروقة مقنطرة على طريقة الرومان ثم يتوزع عبر أنابيب تحت الأرض تملأ خزانات بنيت في أماكن مختلفة من أعلى البلدة الى أسفلها حتى باب البحر" (11) وأشهر هذه الخزانات ما كان برأس المول حيث المول حيث المراكب والسفن الراسية لتتزود بالماء الحلو.

ونظرا لمنافع الخزان وخدماته في الميدان الاقتصادية والاجتماعي فإن عددا من الأهالي ذوي الاحسان تبرعوا بأموال لبناء الخزانات أو لترميمها أو اصلاحها. وناقست النساء الرجال في الميدان وقصة السيدة دومة بنت محمد وخزانها النحاسي جديدة بأن تسرد من خلال وقف صدر أمام القاضي سنة 1825.

" الحمد لله، حضرت بمحضر شاهده وبالمحكمة المالكية من بلد الجزائر المحمية بالله تعالى أمام قاضيها الشيخ... عبد الله بن عبد القادر.. الولية دومة بنت محمد وأشهدتها على نفسها أنها حبست ووقفت لله تعالى جميع خزانها من النحاس على ضريح الولي الصالح سيدي عبد الرحمن الثعالبي... ينتفع به عند ضريح الولي المذكور من طبخ وغير ذلك ورفعت يد الملك ورفعت يد الحياة لوكيل ضريح الولي المذكور وأذنت في الحوز والنظر له فيه من حوز واستغلال الى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين واشترطت الحبسة المذكورة في أصل الحبس بصلح الخزان المذكور أن احتاج الى أصبلاح وتفزدير وترقيع وغير ذلك من كراء خلصة (?) حانوتها الكائنة بكتشاوة... وأخر محرّم 1241 = 1825 " (12).

VI

لقد اكتسى مشكل الماء أهمية كبرى لدى السلطات ولدى السكان ولاغربة اذا رأينا الأجهزة المعقدة المتشعبة تحتاج الى ادارة وقوانين وأموال اسيرها وصيانتها وتطويرها. فالدولة والقوم بالمرصاد دوما لكل ما يتعلق بالماء.

فكان قائد العيون شخصية في النظام البلدي، اليه ترجع صيانة شبكة التوزيع ويعمل تحت اشرافه مجموعة من العمال والمتخصصين يسهرون على السير الحسن. ولقائد الشوارع أيضا النظر في المحافظة على المياه وعلى استعمالها الأجدى.

وفي بداية الاحتلال الفرنسي سئل اليهودي ابن زعموم (وكان موظفا بقنصلية تسكانه بالجزائر) عن طريقة وأهمية الأشغال التي كان الداي يأمر بانجازها لصيانة القنوات والمنابع ومجري المياه في العاصمة فأجاب أنه كان أنذاك خوجة يعين لادارة أملاك الخنفيات وصيانتها وكذلك القنوات. وأما مجاري المياه الفاسدة فمراقبتها من ضريبة خاصة تفرض على المنازل تحت مسؤولية قائد الشوارع (13). ولايكفي أعوان ومسؤولون إن لم تكن قوانين صارمة لحماية المياه وتنظيم الانتفاع بها فمخرب القنوات تقطع يده اليمنى مثلا وهناك عقوبات تنصب على من بذر ماء أو أتلف جهازا أو اغتصب أو حول منبعاً وكانت النتيجة أن عرف الناس قيمة الماء وامتثلوا لمبدأ الاقتصاد فيه والسعي لتوفيره وقد يتساءل المرء عن مصدر الأموال الضرورية لمواجهة التكاليف. فكان معظمها من مردود الأوقات أو من التبرعات. فكانت الأرملة تحبس وكان الباشا ينفق والكل يحلم بحياة أفضل للسكان. يذكر الشريف الزهار أن محمد باشا أوقف على ساقية الحامة أوقافا لخدمة مجرى الماء أن فسد (14). وتفتن سكان العاصمة في هدف أوقافهم فهذا حمس سنة 1774 ينص على أن دخل العمارة الموقوفة يدفع لرجل يوضع عند مدخل الجامع الكبير ليقدم الماء للمارة...

نغادر "بلد الجير" المكتض داخل المثلث وننزل بالفحص الباسم حيث الحدائق كالنمارق كما قال ابن زاكور الفاسي ونغادر "جناح برنس أبيض الى يساط أخضر" كما جاء على لسان محمد بن أبي شنب.

فمن أبي زريعة الى بن عكنون الى حيدرة الى الحامة الضواحي زاخرة بالمياه، مخضرة ناعمة ببساتين وأشجار مثمرة وعدّ الايطالي بانانتي (Pananti) 20.000 بستان كروم وتين وبرتقال وزيتون وتفاح⁽¹⁵⁾ مضيّفا أن ضواحي الجزائر لا تقلّ جمالا عن مقاطعة ريشمون (RICHEMOND) ومقاطعة شانيبلي (CHANTILLI) أوفيزولي (FISOLE)⁽¹⁶⁾. ولم يكن هذا الاخضرار هبة من الطبيعة فهو أبْن الجَدِّ والكَدِّ واستغلال المياه استغلال عقلانيا. وكان لمعظم سكان العاصمة حقل بالفحص يأوون اليه في الربيع والصيف للراحة والاستجمام وخدمة الأرض. وشغف الفناصل المقيمون بالجزائر- بالفحص وجماله فاكتروا الديار الفخمة وتنافسوا في تجميلها لوجود العشرات من العيون الجارية.⁽¹⁷⁾

وبالفحص منابع شيدّها الدايات لصالح المسافرين منها "عين" الحامة في عهد بابا علي نقسيس (1759-60/1173) و"عين" بئر مراد راييس على يد حسن باشا (1793-4/1208) وعين بئر خادم أيام حسن باشا 98/1211-1797 وتقول كتابتها أن الداوي يقارن بعاصف وزير سليمان... مضيّفة "حتى يشرب الانسان الماء والحياة معا..." وقد أعجب الكاتب الفرنسي فرومانتين (Fromentin) بموقعها وهندستها وهدوءها.

واستفاد أهل العاصمة داخل المدينة وخارجها من الانحدار الطبيعي ومن غزارة المياه فخفروا قنوات اتجه المرسى تحمل الأقدار تدفعها قوة المياه.⁽¹⁸⁾

في هذا الصراع بين الانسان وحاجاته من جهة وبين ما يكتنزه المحيط حلّ المشكل- في الماضي. فالنقص يكاد لا يعرف لأن قضية الماء همت الجميع وجندتهم حاكمين ومحكومين فقد نبذ التبذير وشجعت المبادرات وتفهم الناس معنى الصالح العام فالتطوع والتبرع قضيا على مشاكل كثيرة وانشغال الأهالي بأمر الماء جعلهم يفكرون وينجزون قبل أن تسبقهم الأحداث.

وأجمع الغربيون على غزارة الانتاج الزراعي فكثرة الفواكه والخضر والألبان انخفضت بها الأسعار وزادت جودتها وتواجدت في كلّ وقت وعاشت المدينة في رخاء مادامت المياه تسقي الفحص بسخاء وأقدم بانانتي على المقارنة بين الجزائر من جهة وبين بعض المدن الايطالية والاسبانية من جهة أخرى. واعترف بما للعاصمة من امتياز... "ربيع دائم، وأغصان بالفواكه سجد وجدول تنهمر". كلّ هذا جعل العاصمة ذات الجمال الباهر، والمقاني النواظر، وقد "حازت مزيتي البرّ والبحر وفضيلتي السهل والوعر" كمال قال محمد العبدري في رحلته.

المراجع

- 1- كتاب المغرب... ط. داي سلان ص 66
- 2- نزهة المشتاق... ط. الجزائر ص 62
- 3- طرد المسلمون جماعيا بموجب قرار 1609 و، التحقق عدد كبير ببلدان المغرب.
- 4- أنظر كتاب:
- Relation d'un séjour à Alger, P. 330.
- 5- سميت إحدى القشلات باسمه وبعد 1830 أطلق عليها اسم:
"Casern Lemerrier"
- 6- مذكرات... ص 24.
- 7- مذكرات... ص 158.
- 8- كتاب Les Rois d'Alger, P. 153 et 155
- 9- Kmeim, Feuilles d'al djazair,
H, p. 71
- 10- توفي سنة 1541.
- 11- كتابه: Relation de la captivité...
- 12- أرشيف الباليك- عليّة 370 إلى 386- رقم التسجيل 152 سنة 1112 / 1126 (1707- 1718).
- يتضمن السجل بيانات وكشوف حسابية ونصوص تتعلق بالمصاريف على المياه والعيون والسواقي.
- 13- راجع: Gentil de Bussy, de L'établissement
Des Farnçais... II, 407.
- 14- مذكرات... ص 24.
- 15- كتابه: Relation d'un séjour à alger PP. 161- 162: " Les environs d'Alger ne le cèdent, point en beauté à ceux de Richemond, de chantilli ou de Fisolé.
- 16- مع الملاحظة أن الكاتب وقع بحرا في قبضة راييس حميدو سنة 1814 وأقام بالجزائر سنة تقريبا.
- 17- راجع:
- André Alexandre lemaire, Mémoire sur Alger, Publié Par L. chailloux, Textes
pour servir à L'histoire de L'Agérie au XVIII e siècle. P. 10.
- 18- X, Histoire des Etats Barbaresques, 1757 -
II, PP. 247- 251....